# مفهوم الاستبدال ولوازمه في القرآن الكريم – دراسة معاصرة

أ.م. د فاضل أحمد حسين

كلية العلوم الإسلامية جامعة ديالى

Dr.fadilahmed@uodiyala.edu.iq

الملخص

إنَّ لله سننًا يسير عليها العالم، وتخضع لها حياة الأفراد والأمم، وتُؤثرِّ في قيام الحكومات والقيادات وسقوطها. وهي سنن ثابتة مقرَّرة، وجارية نافذة، لا تتغير ولا تتحوَّل. فكلَّما حدَث وضع أو نشأت ظاهرة تتطلَّب تلك السنن، نفذت وتحكَّمت، لا يحول دون نُفوذها حائل، ولا تنفع في ردِّها حيلة. وهي كثيرة متنوَّعة، منها سنة الاستبدال التي قرَّرها الله عز وجل في مواضع عدة من القرآن الكريم، تتبلور هذه السنة جليَّة في سقوط الحكومات والقيادات وقيام الأخرى مقامها، وانحطاط الأمم والجماعات وحلول أخواتها محلها. فإذا رأينا حكومة أو قيادة أو أمة أو جماعة استبدلت بأخرى، فمعنى هذا أنَّ الظاهرة قد خضعت لهذه السنة وتمخضت عنها. فإذا عهد الله إلى أمة، أو جماعة برسالة، أو إلى حكومة أو قيادة بمسؤولية، فإن كانت تؤدي رسالتها، وتقوم بمسؤوليتها، أبقاها على منصبها، وأدام لها نعمتها التي خوَّلها، ووفَّر لها أسباب البقاء، وأفسح لها مجال العمل. وإن تهاونت في الاضطلاع بها، أو قصَّرت في أدائها، أو أعرضت عنها وتولّت، أو ظلمت وطغت، استبدل بها أخرى صالحة للقيام بالمسؤولية، نشيطة في أدائها، تختلف كلَّ الاختلاف عن سابقتها. ولسنة الاستبدال أمثلة كثيرة في الأمم والحكومات والقيادات قبل الإسلام وبعده. ان سنة الاستبدال قد جعل الخالق الحكيم للكون قوانين ونُظُم تسير عليها حركته الطبيعية، وتعيش فيه كائناته ومنها الإنسان، وقد ضمّن سبحانه القرآنَ الكريم بهذه المعاني على نحو الإشارة والتلميح من خلال عرض قصص الأنبياء والأقوام السابقين ووصف الكون وما فيه من مخلوقات بالدقة والنظم وو.. الخ، على أنّها سنن كونية قد جرت على من سبق كحقائق تاريخية أو أنّها موجودة نلاحظها في آياته الآفاقية، والسنّة يمكن أن نعرّفها بأنها: قانون كوني ثابت لا يختلف ولا يتخلّف، متى ما توفرت شروط تحقُّقِه تحقَّقَ.

**كلمات مفتاحية:** مفهوم ،الاستبدال ،القرآن الكريم

# The concept of substitution and its accessories in the Holy Qur'an - A Contemporary Study

Dr.Fadhil Ahamd Hussen

Summary

God has rules that the world follows, and to which the lives of individuals and nations are subject, and they affect the rise and fall of governments and leaderships. They are established, established, and current Sunnahs that do not change or change. Whenever a situation occurs or a phenomenon that requires those norms has arisen, it is implemented and controlled, with no hindrance precluding its influence, and no ploy in its response. They are many and varied, including the Sunnah of replacement that God Almighty has decreed in several places in the Noble Qur'an. This Sunnah crystallizes clearly in the fall of governments and leaders and the rise of others in their place, and the decline of nations and groups. Her sisters took her place. If we see a government, leadership, nation or group replaced by another, then this means that the phenomenon has undergone this year and resulted from it. If God entrusts a nation or group with a mission, or a government or leadership with responsibility, and if it performs its mission and carries out its responsibility, He keeps it in its position, and perpetuates the blessing that He has granted it, and provides for it the reasons for survival, and allows it to work. And if it neglected to carry it out, or failed in its performance, or turned away from it and took over, or was wronged and overwhelmed, it was replaced by another fit to carry out responsibility, active in its performance, completely different from its predecessor. The year of replacement has many examples in Nations, governments and leaders before and after Islam.

**Keywords**: concept, substitution, the Holy Qur'an

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين واصحابه الميامين وسلم تسليما كثيرا.

إنَّ لله سننًا يسير عليها العالم، وتخضع لها حياة الأفراد والأمم، وتُؤثِّر في قيام الحكومات والقيادات وسقوطها. وهي سنن ثابتة مقرَّرة، وجارية نافذة، لا تتغير ولا تتحوَّل. فكلَّما حدَث وضع أو نشأت ظاهرة تتطلَّب تلك السنن، نفذت وتحكَّمت، لا يحول دون نُفوذها حائل، ولا تنفع في ردِّها حيلة. وهي كثيرة متنوَّعة، منها سنة الاستبدال التي قرَّرها الله عز وجل في مواضع عدة من القرآن الكريم، تتبلور هذه السنة جليَّة في سقوط الحكومات والقيادات وقيام الأخرى مقامها، وانحطاط الأمم والجماعات

وحلول أخواتها محلها. فإذا رأينا حكومة أو قيادة أو أمة أو جماعة استبدلت بأخرى، فمعنى هذا أنَّ الظاهرة قد خضعت لهذه السنة وتمخضت عنها. فإذا عهد الله إلى أمة، أو جماعة برسالة، أو إلى حكومة أو قيادة بمسؤولية، فإن كانت تؤدي رسالتها، وتقوم بمسؤوليتها، أبقاها على منصبها، وأدام لها نعمتها التي خوَّلها، ووفَّر لها أسباب البقاء، وأفسح لها مجال العمل. وإن تهاونت في الاضطلاع بها، أو قصَّرت في أدائها، أو أعرضت عنها وتولّت، أو ظلمت وطغت، استبدل بها أخرى صالحة للقيام بالمسؤولية، نشيطة في أدائها، تختلف كلَّ الاختلاف عن سابقتها. ولسنة الاستبدال أمثلة كثيرة في الأمم والحكومات والقيادات قبل الإسلام وبعده. ان سنة الاستبدال قد جعل الخالق الحكيم للكون قوانين ونُظُم تسير عليها حركته الطبيعية، وتعيش فيه كائناته ومنها الإنسان، وقد ضمّن سبحانه القرآنَ الكريم بهذه المعاني على نحو الإشارة والتلميح من خلال عرض قصص الأنبياء والأقوام السابقين ووصف الكون وما فيه من مخلوقات بالدقة والنظم وغيرها، على أنّها سنن كونية قد جرت على من سبق كحقائق تاريخية أو أنّها موجودة نلاحظها في آياته الآفاقية، والسنّة يمكن أن نعرِّفها بأنها: قانون كوني ثابت لا يختلف ولا يتخلّف، متى ما توفرت شروط تحقُّقِه تحقَّقَ.

تمّ تقسيم البحث إلى مقدمة، وثلاثة مطالب، وخاتمة، المقدمة وضحت فيها موقع الاستبدال في المنهج القرآني وانه سنّة الهية تتحكم في المجتمع الإنساني وفق أسباب ومسببات لهذا الاستبدال. اما منهجية البحث فهي:

المطلب الأول: فلسفة الاستبدال الإلهي

المطلب الثاني: حاكمية سنة الاستبدال في التاريخ الإنساني

المطلب الثالث: أسباب الاستبدال ولوازمه .

## المطلب الأول: فلسفة الاستبدال الإلهي

إن لله عز وجل سننًا لا تتبدل ولا تتخلف بإذن الله، وفقه هذه السنن من الأمور الهامة في حياة المسلمين أفرادًا وأممًا؛ لأن هذه السنن من أهم دعائم بقاء الأمم واستمرارها وتمكنها وظهورها، وهذه السنن لا تعرف جورًا ولا محاباة، فهي جارية على خلق الله جميعًا، مؤمنهم وكافرهم، فأيما أمة أو جماعة أو أفراد استوفوا شروطها وعملوا بمقتضياتها جرت عليهم السنن، وجودًا وعدمًا، سلبًا وإيجابًا، ومن أعظم هذه السنن سنة الاستبدال، التي جعلها الله عز وجل لحفظ دينه ونصرة شريعته.

سنة الاستبدال وثيقة الصلة بوظيفة أمة الإسلام، أمة الرسالة الخاتمة، التي شرفها الله عز وجل وخصها في حمل خاتم رسالاته، وإبلاغها للبشرية قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [1] ﴾ فإذا فقدت الأمة المسلمة صفات أمة الرسالة الخالدة، وأصبحوا غير مؤهلين لها، فهمًا ووعيًا وعملًا ودعوةً وجهادًا وصبرًا وهمة؛ يستبدلهم الله بقوم آخرين، ويفقدون بذلك ريادة العالم وقيادته، كما حدث للمسلمين بعد أن ضيعوا مكاسب النصر العظيم، الذي حقق الله لهم، على أقوى قوتين في العالم آنذاك؛ الفرس والروم، في غضون أربعين عامًا، وأقبلوا على التعصب، والتشاحن، والخلود إلى الجاه والسلطان والتنافس عليه، فأصبحوا ذيلًا بعد أن كانوا رأسًا، تحقيقًا لسنة الله عز وجل: قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [2][2] وعمل هذه السنة يقتضي أنه إذا لم يقم الجيل المسلم القائم بأعباء الدين والواجب المناط به تجاه الدعوة والأمة، فإن الله عز وجل يستبدل هذا الجيل، ويأتي بالجيل القادر على حمل مسئولية الدين والأمة.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] فإن تولى المسلمون استبدلهم الله عز وجل، ويكون الاستبدال على مستوى الفرد والجماعة والأمة بكاملها، فلا بد أن ينتصر دين الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [2] [4] وهذا وعد من الله عز وجل، والذي يشك في هذا الوعد فهو يشك في قدرة رب العالمين سبحانه وتعالى، وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3][5] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[4] [6] فهذه كلها دلائل على أن نصر الله عز وجل لا بد أن يتحقق لمن يعمل لله عز وجل، والله عز وجل مع أنه رفع الهمة وبث الأمل ونشط المسلمين فقد عَلَّم المسلمين المنهج الواقعي في معالجة الأمور، فليس معنى رفع الهمة الغفلة عن الأخطاء وعدم ذكر العيوب، لا، فلا بد أن نذكر ولكن بصيغة لطيفة، ولنرفع الهمة ونصلح الأوضاع، ولنكن إيجابيين؛ نكتشف الأخطاء ونصلحها، ونرفع الهمة عند المسلمين، ولا نقرع الأبدان، ولا نلهب الظهور بالسياط، ولكن بلطف وبرقة وبث الأمل.

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِثَوْبَانَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ ، إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ ؟ قَالَ ثَوْبَانُ : بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا ؟ قَالَ : لاَ ، بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ قَالُوا : وَمَا الْوَهَنُ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ)[7] وحب الدنيا أن يتمسك الإنسان بالدنيا ويحبها ويرتبط بها، ويكره أن يموت، ويكره لقاء الله عز وجل والموت والشهادة في سبيل الله عز وجل، فإذا وصلت الأمة إلى هذه الحالة كانت النكبات والكوارث والمصائب على رأسها، فالدنيا خطيرة، ولَمَّا فقه المسلمون قيمة الدنيا وعلموا أنها فانية زائلة، وأن الفائز حقًا هو من انتصر على نفسه، وغلب دنياه وعاش لله عز وجل فقط؛ فتح الله عليهم الدنيا بكاملها، وأعطاهم إياها وهم يزهدون فيها. ولقد فسر لنا خالد بن الوليد كيف كان ينتصر عندما بعث رسالة إلى هرمز يقول له فيها: (أسلم تسلم، أو اختر لنفسك ولقومك الجزية، وإلا أتيتك برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة) [8] . والأمة التي تحب الموت في سبيل الله هي الأمة التي يكتب لها الله عز وجل النصر، إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومَنٌّ وعطاء، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلًا لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه، فإن الله يسترد ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [9] .

تستند فكرة الاستبدال إلى أن الإنسان خُلِق على هذه الأرض بإرادة الله سبحانه، ولما كان الله منزهًا عن العبث واللغو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [10]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [11] وإذا كان الأمر على هذا النحو فمن البديهي السؤال عن السبب، وعن الحكمة التي اقتضت أن يخلق الله الإنسان على الأرض؛ بل أن يخلق له الأرض وغيرها من المخلوقات كما تفيده الآيات الدالة على تسخير كثيرٍ من الأشياء للإنسان: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [12] وبالرجوع إلى كتاب الله عز وجل نجد أنه يبين لنا الهدف من خلق الإنسان على الأرض بعبارات عدة، لا ندعي أنها تدل على معنًى واحدٍ بالضرورة، ولكنها على أي حال تفيد أن ثمة هدفًا يريد الله تحقيقه على يد الإنسان، فمرة يعبر عن هذا الهدف باسم الخلافة والاستخلاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [13] وأخرى يعبر عنه بالعبادة، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [14] وثالثةً يعبر عن هذا

المعنى بقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (15)

**المطلب الثاني: حاكمية سنة الاستبدال في التاريخ الإنساني**

مما لا شك فيه أن المسألة التاريخية من أكثر الموضوعات التي حفل بها القرآن الكريم، فالقرآن الكريم دائما يوجه أنظار قارئيه إلى استنطاق التاريخ واستقراء الحوادث، ومحاولة فهم هذه الحوادث فهما يمكّن من معرفة حركة الوجود وطبائع الحياة، وسنن العمران وأسباب الاستخلاف وسبل التحضر. فثمة حقيقةٌ أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم، هي أن مساحة كبيرة من سوره وآياته قد خصصت للمسألة التاريخية التي تأخذ أبعاداً واتجاهاتٍ مختلفة، وتندرج بين العرض المباشر والسرد القصصي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان... (وتبلغ هذه المسألة حدا من الثقل والاتساع في القرآن الكريم، بحيث إن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبهما حركة التاريخ) (16). مما يمكن القول معه: إن القرآن الكريم هو مصدر وعي تاريخي للإنسان؛ فهو الذي أثار الرغبة في الاطلاع والتشوف إلى التعرف على أحوال الأمم السابقة، وسبب سقوطها، وسنن التداول الحضاري، حتى إنه لم يدع الإنسان أمام هذا الغيب المجهول المحرم على حواسه؛ بل قدم له مساحاتٍ كبيرة لقصص السابقين قبل اختراع الكتابة وتدوين التاريخ، غطى فيها جميع جوانب النشاط البشري العبادي والفكري والسياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي وحتى النفسي، بما يمكن أن نطلق عليه اليوم التاريخ الحضاري، وامتد إلى أنباء الغيب، والغيب هنا يعني الماضي الغائب عن ساحة المعرفة والشهود. لقد امتد الوحي في رؤيته التاريخية إلى مرحلة بدء الفعل التاريخي، وحض على النظر

في كيفية بدء الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ (17) كما غطى الكثير من المساحات المجهولة للإنسان، وعلى الأخص في مرحلة ما قبل الكتابة، وامتد بملامح الرؤية التاريخية لتشمل الماضي والحاضر والمستقبل، إلى درجة يمكن القول معها: إن القرآن يُعدّ-بهذا المعنى الوثائقي (وليس الديني فقط)- أقدم وثيقة تاريخية وردت بطريق علمي صحيح بمعايير البشر، (لذلك نرى أن القرآن يشكل مصدرًا تاريخيًا للكثير من العقائد والأديان والأقوام والمواقع الجغرافية على خارطة الزمن الطويلة؛ حيث لا توجد وثائق معتمدة تغطي هذه الفترات التاريخية) (18)وعليه فالقرآن الكريم هو مصدر المعرفة التاريخية، ومصدر الوعي التاريخي في وقت

واحد، خاصة وأنه طلب التوغل في التاريخ، ودعا إلى السير في الأرض، ولفت النظر إلى أهمية الاتعاظ بأحوال الأمم السابقة، وأتى على نماذج منها، مما دفع الإنسان المسلم للبحث والتنقيب التاريخي لمعرفة هذه الأحوال، والخروج من عهدة التكليف الشرعي بتحقيق العظة والعبرة والوقاية الحضارية، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (19) ، وقال تعالى أيضا في موضع اخر: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (20) ، حتى إن القرآن قد جعل المعرفة التاريخية ومسالك الأنبياء مع أقوامهم مصدر تبين واهتداء، ومنهج اقتداء

يملك القرآنُ الكريم تصوراً للتاريخ يعتمد على ثلاثة عناصر: الزمان، والمكان، والفكرة. أمّا الزمان فينقسم إلى ثلاثة أقسام: الزمان ما قبل التاريخ أو ما فوق التاريخ، والزمان الطبيعي، والزمان التاريخي. وأَقصِدُ بالزمان ما فوق التاريخ ما يذكُرُهُ القرآنُ الكريم من خطاباتٍ وإشاراتٍ وقَصص عن عوالم الملائكة والجنّ، وعن آدم في الجنّة، وعن الجنة والنار، وعن القيامة والمصائر الكونية والإنسانية في ظلّها. وهو "ما فوق التاريخ"؛ لأنه لا يرتبط بحقبةٍ معيَّنةٍ، كما أنه لا يرتبطُ بالمكان، فالزمانُ الإنساني حالةٌ أو عددٌ أو خطابٌ يتحدد بالمكان، وليس الأمرُ كذلك في الخطابات القرآنية بشأن العوالم أو الذوات أو الأشياء الأُخرى؛ بيد أنّ هذه "الزمانيات" التي تحدث ما قبل الزمان الإنساني أو ما بعده لا يُحكَمُ عليها بالصحة أو عدمِها من طريق مدى ارتباطها بالمكان؛ لأنها في الأصل غير مكانية، وإنّما تتجلّى أهميتُها في التصورات الكلية التي تُريدُ تثبيتَها فيما يتعلَّقُ بالكون وقدرة الله عزَّ وجلَّ، كما تتجلّى تلك الأهميةُ في الفكرة التي تريد تثبيتها عن خَلْق الإنسان ومصائره ووظيفته في هذا العالم. وهكذا فالزمان ما فوق التاريخي –أو ما قبل التاريخي– يقوم على الغائية، ويملك وظائف تصوُّرية وأُخرى تفسيرية، ولكلا الأمرين أبعادٌ رمزيةٌ كبرى. وأما النوعُ الثاني من الزمان في القرآن فهو الزمانُ الطبيعي، وهو يظهرُ في النصوص التي تتحدث عن خَلْق العالَم والإنسان، وهي متصلةٌ بفيزياء العالَم وبيولوجيا الكائنات، وهي طبيعيةٌ وليست تاريخية رغم حدوثها في هذا العالم؛ لاستنادها إلى قوانين ثابتة تضمنُها قدرة الله –عزَّ وجلَّ– وإرادتُه، ولا مدخل للإنسان في كينونتها الأُولى، وإن أثَّر المكانُ وأثَّر الإنسانُ في مراحلها التطورية. هذا النوعُ من الزمان تاريخيٌّ بالمعنى العامّ؛ لأنّ لمحتوياته بدايةً، كما أنه قابلٌ للدراسة والتفحُّص بالمعنى العلميّ لذلك. ورغم ظهوره وإدراكه بالحواس وخضوعه للاختبار؛ فإنّ القصْد القرآنيَّ ليس تتبُّع فسيولوجياته أو

كيميائياته (كما يعتقد باحثو الإعجاز العلمي)؛ بل –كما فهم المسلمون الأوائل– الاستدلال على وجود الله وقدرته وإحكام صناعة الخَلْق. أمّا النوع الثالثُ من الزمان –وهو الذي سميتُهُ الزمان التاريخي– فهو يحدث في المكان، وهو يتضمن وقائع محدَّدة (دعوات الأنبياء، ومسالك الأُمَم إزاءها). والقرآن في هذا الصدد واضحٌ لجهتين: القَصَص المتعلّق بالنبوات والأُمم، وضرورة إفادة النبي والمسلمين منها بالإقبال على اعتناق دعوة النبي لكيلا يصيب المسلمين ما أصاب الذين خالفوا دعوات أنبيائهم. والقرآنُ –بوصفه كتاباً دينياً– يرى العالَمَ في هذا الإطار؛ أي أنه صراعٌ بين الخير والشرّ، وبين الحق والباطل، ولسوف ينتصر الخير بالتأكيد إذا أفاد مُعاصرو دعوة النبي من الماضي وتاريخ الدعوات، وإذا ما التزموا بالمبادئ الكبرى للدعوة. ولذا فإنّ القرآن يذكر على سبيل المثال وقْعة بدر، وكيف وفَّق الله المسلمين لكسْبها، كما يذكر وقعة حنين، وكيف كاد المسلمون يخسرون لولا رحمةُ الله بهم؛ في حين كانت هزيمةُ أُحُدٍ درساً لمّا لم يتبعوا إرشادات نبيهم، ما كان منها عاماً وما كان منها خاصاً بترتيبات القتال. وهكذا فالزمان التاريخي في القرآن له ركيزتان: ارتباط الزمان بالمكان، وارتباطه بالفكرة أو الدعوة؛ بمعنى أنّ النصّ القرآنيَّ لهذه الجهة إنما يؤرّخ لمصائر الدعوة الدينية في التاريخ. والدعوةُ هذه هي دعوةٌ مهدويةٌ؛ أي أنها تتقصَّدُ دَفْعَ الناس والزمان والمكان باتجاه الهداية التي يترتب عليها عُمرانُ العالَم وازدهارُه، كما تترتّب عليها مصائرُ أديانٍ وأُمَم؛ إذ ينتصر المستضعَفون وينهزمُ المستكبرون، وتقوم علاقاتٌ مع "أهل الكتاب" تبعاً للكلمة السواء التي دعاهم النبي والمسلمون إليها. فالتاريخُ بهذا المعنى –وإن بدا في صورة تكرار: دعوة، فرفض، فهلاك. أو دعوة، فقبول، فانحراف أو تحريف– يبقى شديد الحيوية؛ (ومن هنا تأتي قُدسية هذا التاريخ: أنه مهدويٌّ وغائيٌّ [21] هذه القدسية–أي قدسية فكرة التاريخ في القرآن الكريم– تقوم على أن للتاريخ معنى أخلاقياً وروحياً مؤسساً على علاقة الألوهية الحقة بالكون، ودور الإنسان فيه، وذلك بوصفه خليفة الله في أرضه.

وكثيرٌ من النصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى في مناسبات مختلفة، فهي تحضّ الإنسان على الإقبال على الحياة والعمل؛ ولكنها تحذره في الوقت نفسه من غرور يتهدده؛ فيكون مصيره الهلاك؛ كما حدث لكثير من الأمم من قبل؛ تصديقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [22] وقال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [23]

ولعل الذي يضفي طابعاً من التفرد والموضوعية الحضارية على فكرة التاريخ في القرآن الكريم هو أنه ينبثق عن رؤية الله، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية؛ وذلك لأنها تحيط علماً بوقائع التاريخ، بأبعادها الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع، الذي يغيب كثيراً عن ذهن الإنسان مهما كان على درجة من البصيرة والذكاء؛ إنه البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية فيلامس فطرة الإنسان وتركيبه الذاتي، والحركة الدائمة في كيانه الباطني، ويتسرب بعيداً صوب اهتزازاته العقلية والوجدانية، وإرادته المستقلة، وما تؤول إليه هذه جميعاً من معطيات تمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية، ويمتد – كذلك – لكي يشتبك في العلاقات الشاملة للمصير؛ ذلك أنها رؤية الذات الإلهية التي وسعت كل شيء علماً، ولهذا صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها الطبيعي من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء، (ولكن الرؤية الوضعية تمتد إلى الماضي لتقتبس منه، وتختار ما يعزز وجهات نظرها المسبقة، والرؤية القرآنية تحيط بالماضي لكي تكثفه في قواعد وسنن تُطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه، وإلى أن يرسم على ضوء هذا الفهم، طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة، على أساس أن الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة حيوية تحكمها قوانين واحدة كتلك التي تحكم الحياة سواء بسواء) [24].

(فالقرآن الكريم يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية) [25]. لذلك أصبح التاريخ في القرآن الكريم مصدرًا للعظة والعبرة التي يجب أن يتلمسها الإنسان في أخبار الأمم الماضية في تدبر وإمعان يقول الله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [26] ودعوة القرآن الكريم إلى التأمل والتفكر في آثار الأمم والحضارات هي دعوة للمؤمنين بتجنب المصير ذاته، فإنه يضع سننًا وقواعد في الحياة، بمراعاتها تستمر الحضارات وتزدهر المجتمعات، ويعيش الناس في أمن ودعة وسلام. أما الانحراف والعزوف عنها وإهمالها أو تجاهلها، فسيؤدي إلى كارثة تحل بتلك الحضارات لا محالة. وهذا الفهم هو ما سجله ابن خلدون في مقدمته، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ، الذين ما تلقوا إشاراته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء عدة قرون. لقد أفاد ابن خلدون من منطق القرآن فيما نص عليه من سنن في تاريخ الأقوام والشعوب أو تاريخ الاجتماع الإنساني في بلورة نظريته الاجتماعية. والسنن تعدُّ محور مقدمة أو نظرية ابن خلدون؛ ولا نعتقد أن محور هذه النظرية هو العصبية أو الدولة أو البداوة والحضارة وما يقع بينهما من صراع،

كما اعتقد كثير من النقاد والباحثين؛ (لأن حديث ابن خلدون عن هذه المحاور الثلاثة إنما جاء في سياق حديثه عن سنن الاجتماع أو العمران البشري؛ أي أن هذه السنن انطوت على هذه المحاور جميعا، ومن هنا، فإن لنا أن نقول: إن القضية المحورية في مقدمة ابن خلدون أو إن نظريته هي السنن) [27]

قد لا يكون مستغربا–بعد أن أشرنا إلى أهمية التاريخ وبُعده الحضاري ودور الإنسان في صناعته– أن يجعل القرآنُ التاريخَ مصدرا للمعرفة، التي تستوعب المعلومة، وتوسع الخبرة، وتصنع الحكمة، وتحقق الموعظة والعبرة، وتغني التجربة، وتؤكد اطراد السنن وفاعليتها، ويستنكر على من يقعدون عن السير في الأرض، والتوغل في التاريخ والاطلاع على الأحوال، ويتعرفون على أسباب التداول الحضاري، بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [28] (فالقرآن الكريم لم يرض للإنسان أن يكون مصورا للواقع، ومسجلا لأحداث التاريخ من الخارج؛ بل لفت نظره إلى أهمية المراجعة والتقويم التاريخي) [29]حيث قام القرآن بمراجعة تراث الأنبياء والمرسلين، ومراجعة تراث الأمم السابقة وحضاراتها وثقافاتها، وسائر أطوار نهوضها وتراجعها، ورقيها وصعودها وتخلفها وانهيارها، وفي كل ذلك يبين الأسباب والعوامل والوسائل، وينبه على القواعد الحاكمة في ذلك كله. (ومن مكنون القرآن الكريم قدرته التامة على مراجعة تاريخ البشرية من خلال عديد السنن التي حفل بها) [30] وتأتي السنن في القرآن الكريم باعتبارها؛ مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئيتها ومفرداتها، فلا يشذ عنها مخلوق. وما في الكون ذرة أو حركة إلا لها قانون وسنة، فكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات...إلا ولها قانون. وما من كوكب أو نجم، وإلا وله قانون لا إرادي أو لا ذاتي يسير وفقه. وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقلة حضارية، إلا ولها قانون أيضاً يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها. وبهذا المعنى تنقسم السنن إلى قسمين: سنن إجبارية تجري على كل الكائنات الحية بما فيها الإنسان.

## المطلب الثالث: أسباب الاستبدال ولوازمه

جاء في القرآن الكريم أن هناك العديد من الآيات التي جاء فيها التصريح بمفهوم السنة الاستبدال والمقصود بهذا المفهوم هو قوم استبدال قوم بالآخرين عنده تبديلهم أو نقصهم على أعقابهم وليس مجرد لفظ الاستبدال ومن تلك الآيات التي جاء مسرح عن القرآن الكريم فيها. قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [31] وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [32] وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُمۡ ﴾ [33] هنا نجد أن هذه الطائفة من الآيات القرآنية في فئة المؤمنين وهي تتحدث عن الذين تخلوا عن بعض وما أمروا به، من الانفاق، أو جهاد في سبيل الله وغيره، في ان استبدلهم الله وغيرهم ممن ينصر دينه أو توعدهم بالاستبدال عن عدم قيامهم بما أمروا به وهناك آيات الأخرى تشير وتتحدث عن الاستخلاص في الأرض وهذه ليست داخلة في بحثنا لأنها تتحدث مع قوم الكافرين، او ضمن اهلاك الأمم الكافر سيكون سنة الاستبدال من سنن الله تعالى في خلقه ويمكن لاستنباط اسبابه من الآيات السابقة في ما يلي:

**أولا: الانحراف عن منهج الله تعالى والشريعة**

فإن الانحراف عن الشريعة والرجوع عنها موجب لاذن الله تعالى باستبدالهم كما جاء في الآية مدار البحث عند وقوع الردة.

ثانيا: ترك جهاد العدو والتباطؤ عن نصرة الدين

وبين الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة في الآية السابقة أن الركون إلى الدنيا عند الدعوة للجهاد من ولي الامر هو سبب في العقوبة الاستبدال، قال ابن حيان (هذا سخط على المتعقلين عظيما، حيث او عادهم بعذاب من أليم مطلق يتناول عذاب الدارين وانه يهلكهم ويستبدل قوما الآخرين خيرا منهم، واطلع وانه غنيا عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقل هم فيها شيئا) [34] قال ابن العربي عن الوعيد المذكور في الآية (وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكدة لمن ترك النفير مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعذبكم عذابا اليما) [35]

ثالثا: عقوبة عدم الإنفاق في سبيل الله تعالى

ذكر سبحانه وتعالى عقوبة التخلف عن الإنفاق في سبيل الله وأنه إذا عصى القوم ربهم واعرضوا عن طاعته، وعن إخراج زكاة اموالهم والإنفاق كما أمرهم الله سبحانه وتعالى بهذا الشأن، حينها يأذن الله تعالى باستبدالهم بقوما غيرهم ولا يكونوا أمثالهم، بل يكونوا أشد منهم طاعة، و أصدق منهم وفاءا، فهو قادر على خلقه أمثالهم ثم لا يكونوا أمثالكم في العصيان والأعراض وترك الشكر، بل سيكونون خيرا منهم، وقد يراد في الآية أن الاستبدال يقع عند الإعراض عن دين الله جملة، وإن كان

سياقها في الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله به الزكاة المفروضة وغيرها، وهما من دين الله عز وجل، وهذا بعض الأسباب الموجبة واللوازم للاستبدال في القرآن الكريم.

فمن تولى عن هذا الدين وعقيدته، أو تولى عن نصره، أو تولى عن الإنفاق من أجله، فلن يضر إلا نفسه. تبقى الحقيقة واضحة عندما تلمس وترى آثار عمل يد الله تعالى، وتعلم أن هذا الكون ليس متروكًا عبثًا ولا سدًى؛ بل هناك رب فوق العرش لا يترك الحياة للباطل وإنما يدفع مرة بعد مرة قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [36] وتبقى الحقيقة كذلك من وراء هذا الاستبدال، وهي أن هذا الدين ماضٍ في طريقه ليحدث في الأرض ما شاء الله تعالى من أقدار، وأنه غالب ولا بد، يتشرف به وبنصره والإنفاق من شاء الله له الرفعة، ويخذل عنه وعن نصره والإنفاق من أجله من سقط من عين الله تعالى. فعندما يسقط من يسقط ويتراجع من يتراجع يتولى الله تعالى الدفع بنبت آخر، ليبقى للحق مدافعوه، ويبقى الباطل في حال انزعاجٍ دائمٍ من كَرّ الحق عليه، هذه هي حقيقة الأمور حتى لو بدا لوهلة أن الباطل مطمئن، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [37]وبالتالي فالأمان هو أن تقف في جانب الحق، حتى لو بدا مهيضًا أو منكسرًا إلى حين، فكل هذه الموازين والتقلبات مؤقتة، والأمور تتغير، وما زالت أنهار الحياة جارية تتقلب أمواجها، والباطل خفيف وبيء، ومليء بالثقوب، فلا يخدعنك أحد أن الباطل مستقر؛ بل ابق مع الحقيقة التي أخبرك الله تعالى بها. وقد يحصل أن تفسد أحوال المجتمع، وتختل قيمه وموازينه، وتعجز قواه الحية عن إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب، الذي يبدأ من تغيير ما بالأنفس، يقول النبي (صلى الله عليه واله وسلم) في الحديث الذي أخرجه أبو داود رحمه الله عن ثوبان رضي الله عنه وأرضاه، واصفًا داء الأمة الخطير:) يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟!، قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة منكم من قلوب أعدائكم، وليلقين في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟، قال (صلى الله عليه وسلم) حب الدنيا وكراهية الموت [38]ومن ذلك الأمثلة القرانية الكثيرة منها قضية فرعون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [39] أخرج الله تعالى فرعون وقومه مما كانوا فيه من مُلك عريض، وجنَّات وبساتين، وأنهار وعيون، ونِعَم ومتاع، وقصور ومبان خرجةً أخيرة لا عودة بعدها، وأورثها كلها – في قول– بني إسرائيل المظلومين المعذبين. قال تعالى:﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [40] وكذلك نجد مثالًا لاستبدال القيادة

الدينية في القرآن الكريم، وهوأنَّه قد اختار الله عزَّوجلَّ بني إسرائيل من بين الأمم المعاصرة لهم لحمل لواء التوحيد، وأنعم عليهم بنعم كثيرة، وجعل فيهم الكتاب والنبوَّة، وأعطاهم زمام القيادة الدينية للإنسانية. فتمسُّكهم بعقيدة التوحيد والاحتفاظ بها سرُّ تفضيلهم على العالمين. إنهم كانوا ممثِّلين لعقيدة التوحيد وحاملين لواءها، بينما كانت الأمم على وجه الأرض ضالة مشركة، ولاشكَّ أنَّ الاحتفاظ بعقيدة التوحيد في المجتمع الضَّالِّ والكافر صعب جدًّا. ولذلك نرى يعقوب عليه السلام يضطرب لدى موته عن المستقبل الدينيّ لأبنائه، فيريد أن يطمئنَّ عليه قبل موته، فيدعو أبناءه ويسألهم عمن يعبدونه بعده، فأجابوه أنّهم يعبدون الله وحده، ولا يشركون به شيئا، فاطمأنَّ واستراح، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (41)

لكنَّهم مع مرور الزمان وسير الأيَّام تنكَّروا لمواريثهم، وتركوا رسالتهم، واغترُّوا باختيار الله إيَّاهم للكتاب والنبوة، فحسبوا أنَّهم أبناء الله وأحبَّاؤه، وأنَّهم لا يدخلون النَّار مهما قارفوا المنكرات والمعاصي، وأنَّهم شعب الله المختار، وأنَّ فضلهم على العالمين لكونهم جنسًا خاصًّا. استشرى فيهم الفساد الخلقي والاجتماعي، وتطرَّق إليهم العِوَج والزيغ، حتى إلى المبادئ التي تمَّ اختيارُهم لأجلها للقيادة الدينية، فخلطُوا التوحيد بالشرك، وذهلوا عن الآخرة، وارتكبوا المعاصي والمنكرات، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفقدوا خصائصهم التي امتازوا بها على الأمم المعاصرة. أمهلهم الله تعالى ليرعوُوا عن المنكرات والمعاصي، ويتولَّوا وظيفتهم التي كُلِّفوا بها، فبعث الله فيهم كثيرًا من الأنبياء ليذكِّروهم ما نسوه من الوظيفة التي أُسنِدت إليهم، ويُرشدوهم إلى المنهج الصحيح، غير أنَّهم ظلَّوا في اغترارهم، ولم يطيعوهم وأصبحوا كالطفل المدلَّل لاينفع فيه تربية ولا يؤثر فيه عظة، بل قد بلغت بهم الجراءة أن كذَّبوا أنبياء الله وقتلوهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (42)

استمرَّت الحال على ذلك حتى بُعِثَ إليهم آخر نبيٍّ، وهو عيسى (عليه السلام)، فكذَّبوه ورموه وأمه بأشنع التُّهم وأقبح الإفك، وتصدَّوا لقتله؛ فرفعه الله إليه ونجَّاه من شرِّهم. قال تعالى حاكيا عن فعلهم الشنيع ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (43) فعيسى (عليه السلام) آخر نبي إسرائيلي خُتِم به تاريخهم الديني ، وعُزِلوا عن منصب القيادة الدينية، ونُقلت إلى بني إسماعيل: العرب، وتمَّ تحويلُ القبلة من البيت المقدس إلى المسجد الحرام.

المصادر

1. القران الكريم

.2مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى : 241هـ) المحقق : السيد أبو المعاطي النوري، الناشر : عالم الكتب – بيروت الطبعة : الأولى ، 1419هـ . 1998 م.

3. مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: 1206هـ)،الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ.

4. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل التاريخ الإسلامي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط، الأولى، 2005م.

5. عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، ع. ستون، رجب 1418هـ.

6. رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م. التفاهم، وزراة الأوقاف، سلطنة عمان، ع. الثاني والثلاثون، ربيع 2011م.

7. سالم أحمد محل، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، م.س،

.8عدنان زرزور، ابن خلدون وفقه السنن، م. إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1428هـ.

9. محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامية القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م.

10. عبد العزيز برغوت، ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، م. إسلامية المعرفة، ع. التاسع والأربعون، صيف 2007م.

11. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ .

12. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671 هـ)، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: 1423 هـ/ 2003 م.

13. الآثار: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (المتوفى:182هـ)، المحقق: أبو الوفا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

---

[1] سورة ال عمران: الآية 110.

[2] سورة محمد: الآية 38.

[3] سورة التوبة: الآيتان 38 ـ 39.

[4] سورة النور: الآية 55.

[5] سورة الروم: الآية 47.

[6] سورة غافر: الآية 51.

[7] مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى : 241هـ) المحقق : السيد أبو المعاطي النوري، الناشر : عالم الكتب – بيروت الطبعة : الأولى ، 1419هـ . 1998 م، 359/2

[8] مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: 1206هـ)،الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ، 297/1

[9] سورة محمد: الآية 38.

[10] سورة الانعام: الاية 73.

[11] سورة الأنبياء: الاية 16.

[12] سورة لقمان: الاية 20.

[13] سورة البقرة: الاية 30.

[14] سورة الذاريات: الاية 56.

[15] سورة هود: الاية 61.

[16] عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل التاريخ الإسلامي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط، الأولى، 2005م، ص .60.

[17] سورة العنكبوت: الآية 20.

[18] عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، ع. ستون، رجب 1418هـ، ص 12.

[19] سورة ال عمران: الاية 137.

[20] سورة يوسف، الاية 111.

[21] رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م. التفاهم، وزراة الأوقاف، سلطنة عمان، ع. الثاني والثلاثون، ربيع 2011م، ص11-13.

[22] سورة الفتح: الآية 22.

[23] سورة فاطر: الآية 42.

[24] سالم أحمد محل، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، م.س، ص 61.

[25] عدنان زرزور، ابن خلدون وفقه السنن، م. إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1428هـ، ص 16. .

[26] سورة الحج: الآيتان 45ـ 46.

[27] عمر عبيد حسنة، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، ص 24.

[28] سورة يوسف: الاية109 .

[29] محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامية القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م، ص 27

[30] عبد العزيز برغوت، ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، م. إسلامية المعرفة، ع. التاسع والأربعون، صيف 2007م، ص17.

[31] سورة المائدة الآية : 54.

[32] سورة التوبة الاية: 38

[33] سورة محمد الاية: 38.

[34] البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر - بيروت الطبعة: 1420 هـ ، 240/5.

[35] الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671 هـ)، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: 1423 هـ/ 2003 م، 141/8.

[36]سورة البقرة الاية: 251.

[37] سورة الأنبياء الاية: 18.

[38]الآثار: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (المتوفى:182هـ)، المحقق: أبو الوفا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ص132.

[39] سورة القصص: الآية 4.

[40] سورة الشعراء: الآيات 57 ـ 59.

[41] سورة البقرة: الآية 133.

[42] سورة المائدة: الاية 70.

[43] سورة البقرة: الاية 87.